عندنا و يظهر لنا انها ملخصة من كتاب يوسيفوس المسمى بحروب اليهود او من التاريخ المنسوب الى يوسف بن كيرون الذي بناهُ مؤلفهُ على تاريخ يوسيفوس واضاف اليهِ قصصاً خرافيةً ينزّه تاريخ يوسيفوس عنها . والظاهر ايضاً ان الكتاب الذي نقل ابن خلدون اخبار اليهود عنهُ هو غير هذا الكتاب لان الفريسيين يسمّون فيهِ بالمعتزلة وقد سماهم ابن خلدون بالربانيين ولو رأى اسم المعتزلة لما اغفلهُ لقربهِ من الاصل العبراني وهو فروشيم اي المفروزون او المعتزلون . وسنعود الى هذا الكتاب في فرصة اخرى

الروّاد المصريون

لحضرة الدكتور بونولاً بك سكرتير الجمعية الجغرافية العام
وهي خطبة تلاها في تلك الجمعية وخصها بالعربية نسيم افندي بن يازجي

زعم المصريون الاقدمون ان بلادهم تشمل المسكونة كلها غير ان هذا الوهم لم يكن ليبقى راسخاً في اذهانهم بعد ان امتدت التجارة الى بلادهم من البلدان المجاورة لها وسار ملوكهم الفاتحون شمالاً وجنوباً ودوخوا الاقطار البعيدة فعلموا حينئذٍ بوجود بلدان اخرى وشعوب آخرين

و يراد بالروّاد الآن الرجال الذين يجوبون البلدان المجهولة لزيادة العلم بها او يكتشفون البلدان المجهولة للوقوف على احوالها مما يتعلق بالعلم . اما روّاد ذلك الزمان فهم اول من اكتشف مجاهل الارض وابلغ نور التمدن اليها

و يتعذر التمييز بين التاريخ المصري القديم وما يتخللهُ من الاساطير الخرافية لكن الباحثين فيهِ قد اثبتوا بعد طول التنقيب ان المصريين القدماء استخرجوا الفيروز والنحاس من مناجم بريّة سينا في عهد الدولة الرابعة (منذ ٥٠٠٠ سنة) وان الملك صنفرو اول ملوك تلك الدولة انشأ هناك مستعمرة مصرية . وقد اكتشف المسيو بتديت في تلك المناجم رسم الملك سوزيري من ملوك الدولة الثالثة فاثبت ان ذلك الملك اول من وسّع نحوم مصر وعرّف اهل بلادهِ باحوالي البلدان المجاورة لها . و يظهر انهُ هو الذي بنى السور بين اصوان وجزيرة الفنتين و بنى الهرم المدرّج في دهشور مدفناً لهُ

وقد وُجد عند سفح جبل سينا صخيفة من الحجر عليها صورة صنفرو يقتل رجلاً يفاسيو وتحتها كتابة تعريبها « الملك القدير ذو التاجين ملك الجنوب والشمال سيد الحق هورس

الذهبي المعطي الحياة والسعادة الذي يشرح القلوب "

والظاهر انهُ كان لهذا الملك سلطان عظيم على رعاياهُ فدامت عبادتهُ في مصر الى زمن البطالسة . وهو اول من وُجد في آثارهم اسماء النساء كاسم الملكة مريتيف واسم ابنتهِ تفرتكو وهما موصوفتان وصفاً رقيقاً

ووجد على صخور سيناء اسم خوفو من ملوك الدولة الرابعة وسكوري من ملوك الدولة الخامسة ويقال انهما كانا يرسلان رجالاً من قبلهما لادارة الاعمال في تلك المناجم

وشرع المصريون الاقدمون في الاسفار من عهد الدولة السادسة غير انهُ يظهر من وجود خشب الارز وبعض المعادن بين آثارهم القديمة انهم كانوا يعرفون بوجود بلدان أُخرى غير بلادهم قبل ذلك الوقت بزمن طويل . ولا ريب ان امراء جزيرة الفنتين كانوا يتعدون الحدود الجنوبية وان الطريق بين اصوان ورأس بناس (على البحر الاحمر) كانت مطروقة منذ عهد قديم وان السفن المصرية كانت تخر البحر الاحمر حينئذٍ . وكانوا يسمون سكان البلاد التي جنوبي اصوان باسم توكس اي الرماة والذين الى جنوبيهم باسم المتلعثمين او الاعاجم لانهم لم يكونوا يتكلمون اللغة المصرية . وقالوا ان وراء ارض المتلعثمين الارض المباركة التي تفيض الخيرات ووراءها ارض الارواح وشجرة الآس حيث تقيم الالهة ووراء الجميع البحر الجنوبي الذي يجري منهُ النيل وتطفو عليهِ الجزر . ولهذا البحر غرائب ونوادر بقيت شائعة في مصر زمناً طويلاً وهي تتضمن ما كان يعتقدهُ المصريون الاقدمون في بلاد الجنوب ايام حكم الالهة على الارض حسب زعمهم

ومن اساطيرهم القديمة رواية الاخوين المشهورة وهي من اقدم الروايات المصرية الغرامية وخلاصتها ان اخوين كانا يعملان معاً في الحقل اسم اكبرهما انبو واسم اخيهِ بطو . وذهب بطو إلى البيت لاحضار البذار فرأتهُ امرأة اخيهِ وراودتهُ عن نفسهِ فامتنع وعاد مسرعاً الى اخيهِ . وعاد انبو في المساء إلى بيتهِ فشكت امرأتهُ اليهِ اخاهُ ظلماً وعدواناً فاستلَّ سكيناً ورصد لهُ خلف الباب قاصداً الفتك بهِ غير ان البقرات التي كانت سائرة امام بطو انبأتهُ بالخطر فهرب وتبعهُ اخوهُ بخازا الحقول والاودية حتى انتهيا الى نهر نعيرهُ بطو اولاً ثم فاض النهر بغتةً وكان مشحوناً بالتماسيح فلم يتمكن انبو من الخوض فيهِ . ووقف بطو على الشاطئ الآخر فبالغ اخيهِ واثبت لهُ انهُ بريء مما اتُّهم بهِ واخبرهُ انهُ عازم ان يسير في النهر جنوباً حتى يصل الى البلاد التي فيها شجرة الآس ويضع قلبهُ عليها فيضمن لنفسهِ الخلود ما دام قلبهُ هنالك

وسار بطو الى تلك الارض المباركة وجعل يصيد الوحوش البرية ويبني لنفسه بيتاً والتقى بجميع الالهة فصنعوا لهُ " امرأة لا اجمل منها في الدنيا لان روح الالهة كانت فيها ". وحدث ان غديرة من شعرها وقعت في النهر وجرت فيهِ حتى وصلت الى حيث كان الملك يغسل ثياب فرعون فصار للثياب رائحة عطرية منها فدعا فرعون جميع السحرة وسألهم عن امرها فقالوا انها من شعر ابنة فراعون وان فيها روح كل الآلهة

فارسل فرعون رسلاً كثيرين الى كل الجهات للتفتيش عنها فعادوا بخبر حنين الاَّ الذين ذهبوا إلَى الارض المباركة فان بطو قتلهم كلهم وابقى واحداً منهم ليخبر مولاهُ بما حلَّ بهم . فارسل فرعون الرماة والمركبات وارسل معهم امرأة معها كثير من الجواهر لتستميل قلب بنت الالهة فتمكن من احضارها الى مصر

وقد كتب هذه الخرافة رجل في عهد الدولة التاسعة عشرة (منذ ٣٣٠٠ سنة) لكنَّها كانت متداولة قبل ايامهِ ومفادها ان الى الجنوب من بلاد مصر بلاداً خصبة فيها شجرة الآس دليل الخلود وان تلك البلاد يرويها النيل الذي حمل غديرة زوجة بطو الى مصر وان الوصول اليها سهل ميسور لان بطو بلغها وحدهُ ورُسُل فرعون دخلوها . ويستدلُّ منها على ان فرعون كان اذا اراد تحقيق امر متعلق ببلاد غريبة او مجهولة يستشير السحرة ثم يرسل الرسل والتجريدات المسلحة وكانت هذه التجريدات تركب احياناً طريق التارطيين فلا تعود وترجع احياناً اخرى باخبار واحاديث لا اثر لها من الصحة . وقد تفلح في ما أُرسلت لهُ ثم تبالغ في وصف ما لقيتهُ من المخاطر وما رأتهُ من الغرائب فنشأ عندهم نوع من الجغرافية الخيالية . ولذلك امثلة كثيرة في القرون الوسطى الحديثة فقد ادَّعى بعضهم انهُ رأى جزيرة في البحر المتوسط تتبع سفن لويس التاسع ملك فرنسا وادَّعى آخر انهُ لمس باصبعهِ ابواب الجنَّة في الشرق الاقصى وامثال ذلك كثيرة

وقد اكتشف العالم غولنشف قصة مصرية ينتمي تاريخها الى الدولة الثانية عشرة . ومفادها ان مصرياً ركب سفينة كبيرة طولها مئة وخمسون ذراعاً وعرضها اربعون ذراعاً ومعهُ ١٥٠ نوتياً من نخبة رجال مصر وصعد بها في النيل حتى انتهى إلَى بلاد المتلثمين آلتي تلي بلاد الرماة . وهناك ثارت عليهِ زوبعة اغرقت السفينة بمن فيها ولم ينجُ منهم سوى راوي هذه القصة تتعلق بقطعة من الخشب وظلت الامواج تتقاذفهُ حتى انتهت به على جزيرة " لم يجد لهُ فيها مؤنساً سوى قلبهِ الشجاع ". وكانت الجزيرة كثيرة الزرع والاثمار فبقي فيها مذبحاً وقدَّم ذبيحة شكر للآلهة على نجاتهِ . وفيما هو جالس سمع صوتاً كهزيم الرعد واذا بحيَّة طولها ثلاثون

ذراعاً ولها لحية طولها ذراعان وجسمها يلمع كأنهُ مغطًّى بصفائح من الذهب فلما رآها ارتعدت فرائصهُ وجثا امامها يتوسل اليها لكي لا تضرهُ فحملتهُ بفمها واوصلتهُ الى حجرها وامرتهُ ان يقص عليها خبر مجيئهِ الى تلك الجزيرة فحدَّثها بما كان من امرهِ وكان مع الحية اخوتها والادها وهنَّ خمس وستون فوعدتهُ بقدوم سفينة تعود بهِ الى اهلهِ بعد اربعة اشهر . وكان كما قالت فعاد الرجل الى بلادهِ بالهدايا الثمينة من العاج والاثمار والقرود والحيوانات . ثم اختفت الجزيرة في الماء

وقد ظن مسيرو ان هذه الحكاية خرافية محضة ولكن لو حذفنا منها الحية وابدلناها برئيس قوم لصارت جغرافية محضة . ولا ريب عندي ان لها اصلاً حقيقياً ثم زيد عليهِ اختفاء الجزيرة لاخفاء الحقيقة كما كان يفعل الفينيقيون في ما يقصونهُ عن البلدان التي يجلبون بضائعهم منها

و بديهيٌّ ان اول بلاد دخلها ملوك مصر الاقدمون كانت البلاد المجاورة لتخومهم الجنوبية او بلاد السودان وكانوا يرسلون اليها بضائعهم من الكتان والطيوب والزجاج و يجلبون منها التبر وجلود الاسود وريش النعام وخشب الابنوس

واول سائح مصري وصل خبرهُ الينا نشأ في عهد الدولة الخامسة (منذ ٤٧٣٠ سنة) في ايام الملك اسا واسمهُ اردودو وهو من كبار رجال الدولة وغاية ما يُعلم من امرهِ انهُ سار جنوباً الى الارض المباركة واحضر منها قزماً اعجب الملك برقصهِ . ولقد كان لسياحة هذا الرجل شأن عظيم عند المصريين القدماء فنقشوا خبرها بين آثارهم . وقام بعد اردودو سائحان اسم احدهما اونة واسم الآخر خركوف وكانا متعاصرين . و يظهر من النقوش التي وجدت على قبر اونة (وقد كشفهُ مريت باشا في العرابة المدفونة ونقلهُ الى دار التحف المصرية) انهُ كان يحمل التاج في عهد الملك تتا اول ملوك الدول السادسة ثم ارتقى في عهد خلفهِ بيي الاول ونقلد مناصب سامية "اكتسب بها رضى الملك اكثر من كل رجال الدولة" وبعث بهِ الملك إلى تروبو (طرة) لاحضار حجر ابيض يصنع منهُ تاووس للملك فأتمَّ ما أُمر بهِ على ما يرام فجعلهُ الملك صديقاً لهُ وعهد اليهِ بقيادة حملة لمحاربة عربان جبل سينا واهالي جنوبي سورية فجمع جيشاً من اهالي الجنوب ومن اهالي مدجاو السود (وهم البربرة وكانوا في تلك الايام شُرَّطة البلاد وحفظة الامن فيها) ومن اهالي امام واواوت وكاو وتاماهو (وهولاء من صحراء ليبية) وغزا العرب خمس مرات "تقطع اشجارهم واحرق بيوتهم وحصونهم وذبح الوفاً منهم" ثم سار بحراً الى العريش واخضع سكان تلك البلاد فعلت منزلتهُ عند فرعون ومسح لهُ ان يلبس نعليهِ في حضرتهِ وهذا اعظم ما يكافأ بهِ احد عند ملوكهم

وخدم اونة الملك مرنرا خليفة بي فامرهُ اولاً بعمل ناووسهِ ثم ولاَّهُ على الوجه القبلي وفوَّض اليهِ انشاء السفن . ولما اعوزهُ الخشب في مصر كلف امراء بلاد النوبة وبلاد الجنوب باحضاره وبنى معامل كثيرة في بلادهم ولا سيما في بلاد امام

وزارهُ الملك في جزيرة الفنتين ورأى اعمالهُ العظيمة ونقش اسمهُ وصورتهُ على صخر الشلال . وتوفي اونة بعد ذلك بزمن قصير

وقد عثر العلماء في حكاية اونة على اسماء شعوب و بلدان كثيرة جنوبي مصر ولكنهم لم يتفقوا على تعيينها . وقد درستُ هذه الاسماء مع صديقي العلامة غروف وقابلناها على الاسماء الواردة في حكاية خركوف فاستنتجنا منها اموراً جديرة بالذكر وسيأتي الكلام عليها

واكتشفت قرينة ولي عهد اسوج وزوج مدفن خركوف وهو احد كبار رجال الدولة في ايام الملك مرنرا وبي الثاني وذلك في شهر فبراير سنة ١٨٩٢ في التل الذي على الجانب الايسر من النيل في اصوان . واتفق اذ ذاك وجود العالم ارنست شيابرلي هناك فاعتنى بفتح المدفن وقراءة الكتابة التي فيهِ وهي تصف ثلاثة سيَّاح وست رحلات وفيها امور ممكنة بواسطتها من تحقيق اسماء البلدان التي ذكرها اونة . وقد اعلن المسيو شيابرلي اكتشافهُ هذا للجمعية الجغرافية في جلسة ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٣

اما السيَّاح والسياحات التي ذكرها خركوف فهي

(١) سياحة اردودو التي ذكرها

(٢) سياحة خركوف مع ابيهِ وكان الملك مرنرا قد ارسلهما مع آرا لاكتشاف طريق جديد الى بلاد "امام" وهي قرب بربر والاثيوبيا . واذا ثبت هذا كانت هذه الطريق طريق كروسكو الى ابي حمد وهي تخترق بلاد اوهات وهناك التقى خركوف في سفرتهِ الثالثة بامير امام . ومن المحتمل ان آرا كان قد زار تلك البلاد مع اونة فان اونة قضى نحو سنة في ذهابهِ وايابهِ الى بلاد امام لانهُ سار في النيل وكان مضطرًّا ان ينتظر زمان الفيضان ليتمكن من عبور الشلالات . لكن خركوف وآرا قضيا سبعة اشهر فقط في سياحتهما هذه وعادا بالهدايا الثمينة" فاستحقا شكر الملك لهما"

(٣) والتقى خركوف بسياحتهِ هذه او بالتي تليها بامير امام في بريَّة كرسكو وكان زاحفًا لقتال شعب تاماهو الذين كانوا ساكنين في بلاد الغرب ولعلها عند منحرف النيل . وكان هذا الشعب منتشرًا الى الواحات فسار خركوف اليهم مع جنود امير امام وصادفهم وانزلهم بعبادة آلهة المصريين

(٤) ثم ارسلهُ الملك وحدهُ (وهي الرحلة الثالثة) لاستكشاف البلاد التي تلي بلاد امام فسار الى بلاد ارت وسكر وترارس وارتيت وستو " ولم يفعل ذلك قبلهُ احد من مستشاري الملك او مندوبيهِ في بلاد امام "

(٥) ورحلتهُ الرابعة كانت تجربة عسكرية على ما يستدل من قولهِ انها كانت "لتوطيد الامن" . ووصل فيها الى بلاد امام وارت وستو وبلاد المتلعثمين ورجع منها بثلاث مئة حمار تحمل الهدايا الثمينة كالابنوس والعاج وجلود الوحوش واحضر معهُ الرجال الذين اخذهم اونة إلى معامل امام " عند ما سار اليها بالقوارب الحاملة تمرًا واشربة وآنية النحاس "

وقد قابلنا اخبار هذه الرحلات باخبار رحلة اونة فتمكنا من تحقيق اسماء بعض البلدان. فقد تقدم القول ان اونة جلب الخشب من امراء امام وارت وبلاد المتلعثمين وانهُ انشأ معامل في النوبة وانهُ سار الى تلك البلدان صاعدًا في النيل وقد شحن قواربهُ بالاشربة والجوهرات والآنية النحاسية وبقي في سفرتهِ هذه سنة من الزمان لانهُ اضطر ان ينتظر الفيضان لكي يتمكن من عبور الشلالات ولذلك فبلاد امام واقعة في ما يلي الشلالات او حوالي مدينة بربر

وجاء في رحلة آرا ان الملك ارسلهُ ليكتشف طريقًا اقصر من التي سار فيها اونة ولا ريب انهُ سار برًا مخترقًا صحراء كروسكو لانهُ لم يذكر السفن قط . ولما عاد خركوف من الحملة على اهل ارت وستو وبلاد المتلعثمين رجع الى مصر بطريق النيل مارًا ببلاد امام واحضر معهُ الرجال الذين كان اونة قد استخدمهم في المعامل التي انشأها هناك

فاذا تقرر ان بلاد المتلعثمين كانت جنوبي بلاد النوبة حيث الطول من ١٥° — ٢٠° وان بلاد اوهات كانت في صحراء كروسكو وبلاد امام وارت حوالي بربر وبلاد ارتيت على جانبي نهر الاتبرة جنوبي امام ويليها ستو امكننا ان نتتبع رحلات اولئك الرواد بالتدقيق وان نعرف مواقع البلدان التي زاروها

(٦) اما رحلة خركوف الخامسة والاخيرة فلا يزال تفسيرها مبهمًا. فقد ذكر ان بيي الثاني خلّف مرنرا ارسلهُ الى بلاد الجنوب ليأتيهُ بطيوبها فعاد اليهِ بالهدايا الفاخرة من امير اماو . وهذه اول مرة ورد فيها هذا الاسم وقد اتفق العلماء ان هذه البلاد واقعة إلى جنوبي بلاد امام وارتيت وستو. واحضر خركوف معهُ قزمًا من البلاد المباركة كالذي احضرهُ اردودو ولكنهُ لم يذكر هل سار بنفسهِ الى تلك البلاد او اخذ القزم من القوافل . وقد اثبت العالم شيابرلي ان البلاد المباركة كانت لا تزال بعيدة الى الجنوب الشرقي حيث موطن

الانقرام الاصلي ... ولما بلغ فرعون وعبيدهُ خبر عجيء القوم فاموا وقعدوا ولم يطمئن بالهم حتى وصل اليهم سالماً فسلم فرعون الى خركوف رسالة "مملوءة من الفرح والحبية" ويجيء سطورها "المنجمون الجالسون في حضرة الملك" ومنها "يعلم الناس مظاهر الشرف والافتخار التي اولاهُ اياها الملك"

وانتهت الرحلات ايام الدولة السادسة بخطب عظيم وذلك ان بيبنكن احد المقربين الى بيي الثاني سار بامره لاخضاع اهالي جبل سينا وجنوبي سورية . وبعد ان تم مهمتهُ اراد السفر بحراً الى البلاد المباركة ثم الرجوع منها بحراً سائراً بجانب الشاطئ الى راس بالناس ومن هناك براً الى انس الوجود . وبينما كان يبني سفينتهُ هاجمهُ عربان جبل سينا وذبحوهُ مع اكثر رجالهِ فحمل الباقون جثتهُ ودفنوها في الجبل مقابل اهوان . وقد اكتشف بوريان مدفنهُ سنة ١٨٩٣ . وحدثت كل هذه الامور منذ اكثر من خمسة آلاف سنة حينما كان اهالي اوربا يأوون الى الكهوف والجبرات . وقد تمكن العلماء بعد الجهد من حل رموز الكتابات القديمة فصرنا نروي اليوم اخبار تلك الايام . ومن فضل العناية الموجهة للمكتشفات الاركيولوجية صرنا نقف امام الخزائن في المتحف المصري ونرى جثة الملك مرنرا سلف محمد علي باشا واسمعيل باشا الذي بعث باونة وآرا وخركوف لاكتشاف بلاد الجنوب

المزج والتذويب

قال العالم هايكوك في المجمع الملكي الذي التأم في الثاني من ابريل ان الامزجة المعدنية مثل مزيج النحاس والتوتيا المعروف بالنحاس الاصفر تشبه المواد الجامدة التي تذوب في سائل كأن احد المعدنين يذوب في الآخر او يتحلل بهِ . فاذا اذيب قليل من الملح في الماء لم يعد الماء يجمد على درجة الجليد العادية بل على درجة اوطأ منها وكذلك اذا امتزج معدن بالزئبق مثلاً فان الزئبق لا يعود يجمد عند الدرجة التي يجمد عندها عادة بل عند درجة اوطأ منها

وقد اتفق لهُ ان صنع مزيجاً معدنياً لم يصنعهُ احد قبلهُ ولم يرهُ واحد قبل ذلك اليوم وهو من التوتيا والفضة ومن خواصهِ الغريبة ان لونهُ يتغير بتغير احواله ففي حالتهِ العادية يكون احمر كالنحاس ولكن اذا طرحت خراطتهُ على صفيحة معدنية محماة الى درجة الحمرة صار ابيض كالفضة واذا ترك حينئذٍ حتى يبرد من نفسهِ بقي فيهِ لونهُ الابيض ولكن اذا بُرِّدت بغتةً بطرحهِ في ماء بارد ضرب لونهُ الى الحمرة